سلسلة الشعر العالمي 1

ناظم حكمت

ملحمة الشيخ بدر الدين ابن قاضي سيماونة



نقلها عن التركية فاضل لقمان

دار الفارابي

ملحمة

الشيخ بدر الدين بن قاضي سيماونه

ناظم حكمت

مَلحَمة الشيخ بدَر الدّين ابنْ قاضي سّيماوَنة

« أول قائد ثورة اجتماعيّة فلاّحيّة في تاريخ البشريّة شنق في مدينة سيرز SEREZ عام ١٤٢٠ »

نقلها عن التركية فاضل لقمان

دار الفارابي - بيروت

١٩٧٩

دار الفارابي ـ ص.ب : ٣١٨١ ـ بيروت
الطبعة الاولى ايـــار ١٩٧٩

مقدمة

ان الشيخ بدرالدين هو فيلسوف وعالم ديني تركي عاش بين عامي ١٣٤٤ و ١٤٢٠ . وقد عرف بلقب السيماوي لأن من المعتقد انه ولد في بلدة سيماو التابعة لمدينة كوتاهية .

اثارت آراء الشيخ بدرالدين الداعية الى المساواة التامة بين البشر دون النظر الى الاختلاف في الدين والمعتقد ، والى جعل نتاج جميع الممتلكات والاراضي ملكية مشتركة للجميع ، والى تحليل بعض الاشياء المحرمة اهتماما كبيرا بين صفوف الشعب مما اهئل الشيخ بدرالدين لأن يكون قائدا لأولى الثورات الاجتماعية الكبرى في تاريخ تركيا .

ان الشيخ بدرالدين الذي قال بعدم امكانية التفكير بالروح بمعزل عن المادة ، وبتساوي الدنيا والآخرة وتناظر كل من عالمي المادة والروح ، كان اول الفلاسفة الماديين في تركيا .

لعبت افكار بدرالدين دورا كبيرا في الانتفاضات الفلاحية المناهضة للاقطاع والتي انتشرت انتشارا واسعا في مناطق آيدن ومانيسا في القرن الخامس عشر . حققت هذه الحركات الفلاحية بقيادة اثنين من تلاميذ الشيخ بدرالدين هما : بوركلوجه مصطفى وتورلاق كمال نجاحا كبيرا غير ان قوات السلطان محمد الجلبي قامت باغراقها في بحر من الدماء بكثير من القسوة والعنف . بعد ذلك تمكن بدرالدين من عبور البحر واستانف دعوته الثورية بعد ان عسكر في دلي اورمان (الغابة المجنونة) ، غير ان جواسيس السلطان تمكنوا من التسلل الى حركته ونجحوا في اختطاف الشيخ

الذي تم شنقه في بلـدة سيرز .

ان احـد الاسباب التي جعلت نـاظم حكمت يكتب ملحمة الشيخ بدرالدين ، بل اهم هذه الاسباب ، هو أن هـذا الشيخ استطاع قبل خمسة قرون من الآن ان ينشر بين صفوف الشعب افكار المساواة والحرية ودفع حياته ثمنا لنضاله في هذا السبيل .

بعد طباعة ملحمة الشيخ بدرالدين عـام ١٩٣٦ حاول بعض ادعياء اليسار من المثقفين في تركيا ان يتهموا ناظم حكمت بالقومية الضيقة ، ودمغوا الملحمة بوصمة التنافي مع الماركسية زاعمين بأن الشعور بالكرامة القومية غريب عن البروليتاري الاممي . وللرد على هذه الاتهامات شعر نـاظم حكمت بضرورة اضافة « ذيل » ما لملحمته فنشر في العـام نفسه كراسـاً يحمل عنوان « الكرامـة القومية » . وكان هذا الكراس ، مثلما هو واضح من عنوانه ومن محتواه ، رداً على الانتقادات من جهة ، ووسيلة للتعريف بمقـال لينين الذي كان بعنوان « كرامة الروس القومية » في تركيا .

المترجم

ملحمة الشيخ بدر الدين بن قاضي سيماونة

كنت أتابع قراءة رسالة تحمل عنوان « بدرالدين قاضي سيماونه » طبعت في مطبعة الاوقاف الاسلامية عام ١٩٢٥م = ١٣٤١هـ لكاتبها السيد محمد شرف الدين أفندي مدرّس « تاريخ الكلام » في كلية الشريعة (الالهيات) بدار الفنون . وعند وصولي الى الصفحة الخامسة والستين من الرسالة وجدت الكلام التالي على لسان دوكاس Dukas الذي كان يعمل لدى الجنويين بوصفه كاتباً للأسرار Serkâtip

« في تلك الأثناء ظهر على مسرح الأحداث شخص تركي من الفلاحين العاديين البسطاء في منطقة جبلية قريبة من مدخل خليج اليونيون تلك المنطقة التي عرفها العامة باسم « « Karaburnu » قره بورنو » (المنقار الاسود ــ ستيلاريوم) . وستيلاريوم هذه واقعة مقابل جزيرة « صاقيز » . وهذا الفلاح كان يعظ الأتراك وينصحهم بأن يجعلوا كل الممتلكات ، عدا النساء ، من أرزاق وملابس وأراضٍ وغيرها جميعا ملكية مشتركة للجميع » .

وتخيلت أمامي كاتب الأسرار عند الجنويين الذي يبين بمثل هذا الوضوح مواعظ وتعاليم ذلك الفلاح التركي البسيط في

ستيلاريوم ، تخيلته ملفوفـا بألبسته المخملية السوداء ، تخيلته بلحيته المدبية ، بوجهه الشاحب المتطاول المنـاسب للمراسيم • وقيامه بوصف أكبر مريدي الشيخ بدرالدين بن قاضي سيماونه مصطفى بوركلـوجه بصفة « العـادي » ، بمعنييهـا ، جعلني أضحك • وفجأة عدت الى التفكير بمؤلف الرسالة السيد محمد شرف الدين آفندي فهو لـدى حديثه في رسـالته عن أهداف بدرالدين يقول :

« لـم يكن لجوء بوركلوجه الى استثناء النساء لدى وعظه بجعل الأرزاق والمواشي والأراضي ومـا اليها ملكية عامة الا نوعـا من التقية والتستر كي لا يفتضح أمره عند الرأي العام • ولا شك بـأن أستاذ مصطفى القائل بوحدة الوجود لم يعطه درساً خاصا يقضي بمثل هذا الاستثناء » •

ومن هنا اكتشفت أن مدرّس تاريخ الكلام هذا جدير بأن يحمل أوسمة سبعة اكراماً له على قيامه بضرب الرمل هذا للكشف عن ضمائر الناس عبر العديـد من القرون • وتذكرت جملتين قالهما ماركس وأنجلز :

« ليست امرأة البرجوازي عنـده سوى أداة انتاج بسيطة ، وهو يسمع أن أدوات الانتاج يجب أن تكـون مشتركة ، فيستنتج من ذلـك بالطبع أن النساء أنفسهن سوف يسري عليهن ذلـك » •

فما الذي يمنع مدرّس الفقه في كلية الشريعة بدار الفنون من أن يفكر بالاشتراكية الفلاحية القروسطية عند بدرالدين مثلما يفكر البرجوازي بالاشتراكية العمالية العصرية ؟ أليست المرأة في نظر اللاهوت و « الفقه » سلعة من السلع ؟

أطبقت الرسالة . أحسست بشيء من الحك والحرقة في عيني غير أنني لم أكن ميالا الى النوم . نظرت الى الساعة ذات ماركة القطار المعلقة على الجدار . وجدتها تقترب من الثانية . أشعلت سيجارة أعقبتها بأخرى ورحت أصغي الى الأصوات المتجولة في الأجواء الشبيهة بتراكم المياه الحارة الآسنة ذات الروائح الثقيلة المنبعثة في المهجع . كان المهجع باسمنته المتعرق وبنزلائه الثمانية والعشرين ، سواي ، نائما . أما عناصر الدرك في أبراج الحراسة فكانوا هذه الليلة أيضا يطلقون أصوات صفاراتهم بحدة أكثر وعلى فترات أقصر . وكلما جن جنون الصفارات كما هي الآن نتيجة لمجرد العدوى ، ربما دون أي سبب آخر ، أظنني في سفينة موشكة على الغرق في ليل دامس الظلام .

من المهجع العلوي كانت تنبعث أصوات صرير القيود الحديدية للمحكومين بالاعدام . كانت أوراق هؤلاء في محكمة التمييز . فمنذ عودتهم ذات مساء ماطر بعد صدور الحكم عليهم يتحركون هكذا مجرجرين قيودهم الحديدية محدثين الكثير من الجلبة باستمرار حتى ساعات الصباح .

وعندما يخرجوننا نهارا للتنفس في الباحة الخلفية كنت أحاول النظر الى نافذة هؤلاء . كانوا ثلاثة من البشر . اثنان منهم جلسا معاً في النافذة اليمنى والثالث يجلس وحده في النافذة الكائنة ناحية اليسار . وعلمت أن هذا الجالس وحده هو الذي ألقي القبض عليه أولا وهو نفسه الذي أفشى بسر الآخرين . وقد كان أكثرهم تدخيناً .

ثلاثتهم كانوا يحيطون بقضبان النافذة الحديدية بأذرعتهم .

ورغم أن المكان الذي كانوا يحتلونه كان يجعلهم قادرين تماما على رؤية البحر والجبال فانهم كانوا على الدوام ينظرون الى الاسفل الى الباحة ، الينا نحن ، الى البشر .

لم أسمع أصواتهم على الاطلاق . فقد كانوا الوحيدين في السجن الذين لم يكونوا يغنون فلم يغنوا ولو لمرة واحدة . وعندما تصمت ذات فجر مظلم بصورة مفاجئة سلاسل الحديد التي تتولى الحديث عنهم وفي ساعات الليل فقط فان السجن سيعرف بأن أكثر ساحات المدينة ازدحاما بالناس قد شهدت تدلي ثلاثة قمصان طويلة تحمل ثلاث يافطات على صدورها .

ليتني أحصل على حبة أسبرين ! أشعر بحرقة في كفي . في مخيلتي بدرالدين وبوركلوجه مصطفى يتجسدان . لو استطعت ان أجبر نفسي قليلا ، لو لم يكن ألم رأسي شديدا بحيث تغشى على عيني غيمة داكنة ، لأمكنني أن أرى عبر السنين البعيدة والمديدة بريق نصول السيوف وأسمع صليلها مع حمحمة الخيول وشقشقة لسعات الكرابيج وعويل النساء وصراخ الأطفال ، ولاستطعت من خلال ذلك كله أن أرى وجهي بدرالدين ومصطفى مثل بشارتين مضيئتين متألقتين .

وقعت عيني على الرسالة التي تركتها فوق الاسمنت قبل قليل بعد اغلاقها . انها مغلفة بغلاف شبيه بـ « الجانرك » الذابل المتفسخ تحت أشعة الشمس المحرقة . وعلى الغلاف كتب اسم الرسالة بخط ثلثي مشكول . ومن داخل الغلاف تطل الأطراف الممزقة لأوراق الصحائف الصفراء . « لا بد من انقاذ صاحبي بدرالدين من الخط الثلثي لهذا المدرّس في كلية

اللاهوت ، من قلمه المصنوع من القصب من وسائل كتابته ومن الرمال التي يستخدمها لتجفيف الحبر ! » • هكذا فكّرت • انني أحفظ العديد من الأسطر التي قرأتها مرات عديدة لكل من ابن عـربشاه وعـاشق بيشه زاده ونشري وادريسـي تبليسـي ، ودوكاس ، وحتى شرف الدين أفندي :

« يمكن بقوة تخمين أن تاريخ تولـّد الشيخ بدرالدين هو حول عـام ٧٧٠ » •

« أنهى دراسته في مصر وبقي في هذه البلاد مـدة طويلة ومـا من شك في أنه اكتسب شهرة علمية واسعة في هذه الاوسـاط » •

« لدى عودته من مصر الى أدرنه وجد أبويه لا يزالان على قيد الحياة » •

« مثلما يمكن تقـدير أن سبب عودته الى هنا كان لزيـارة أبيه وأمه ، فان من المحتمل أن يكـون سبب قدومه الى هذا البلد هو تلبية دعوة موسى الجلبي الـذي كان سلطانا في تلك الايـام » •

« عندما استطاع محمد الجلبي الحاق الهزيمة بأخيه وتمكّن من فرض سيطرته على الأوضاع أصدر أمراً يقضي بـأن يقيم الشيخ بدرالدين في ازنيق » •

« يقول الشيخ في مقدمة « التحصيل » الذي أتمه هنا ••• ان النار الكائنة في قلبي بدأت تتقد • وتزداد هذه النار اشتعالا وأواراً بحيث ستجعل قلبي يذوب ولو كـان مقدوداً من الحديد الصلب » •••

« لـدى نفي الشيخ الى ازنيق وصل مريده مصطفى

بوركلوجه الى ناحية آيدن . ثم رحل من هناك الى قره بورنـو » .

« من أقواله مثلما أستطيع أنـا أن أتصرف بمـا تملكه أنت يجب أن تكون أنت كذلك تماما قـادرا على أن تتصرف بما أملكه أنـا . وبعد أن أغوى وجذب الفلاحين والعامة الى صفه بمثل هذا الكلام توجّه نحو المسيحيين محـاولا أن يبني علاقـات متينة معهم . ورغم أن والي صاروخان لدى الجلبي سلطان محمد شن حربـاً على هذا الراهب المزيف فـانه لم ينجح في الوصول الى أبعـد من ممرات ستيلاريوم الضيقة » .

« سمع ابن قـاضي سيمـاونه أن أحـوال بوركلجه أصبحت جيدة مما جعله هو الآخر يهرب من ازنيق ، ويصل الى اسفانديـار . ومنها أبحر على ظهر أحـد القوارب الى نـاحية الأفلاك . ومن هناك دخل في بحر الأشجار » .

« وفي هذه الأثناء تلقّى السلطان محمد أنباء تمرد مصطفى خليفة الشيخ آنف الذكر في نواحي آيدن محدثاً الفوضى وناشراً الالحاد . وعلى الفور صدر قرار باسـم ملك آسيا الصغرى وآماسيا السلطان مراد يقضي بحشد جميع جيوش الاناضول لمقاومة الملحد الكافر مصطفى . وسـارت الجيوش الجرارة بكامل تجهيزاتها باتجـاه آيدن للقضاء عليه ... » .

« وقـد جمع مصطفى حوله مـا يقرب من عشرة آلاف شخص من المفسدين والملحدين للوقوف فـي وجه الشاه زادة » .

« وجرت معركة طاحنة » .

« وبعـد اهراق أنهار الدماء وفق الله المؤمنين فهزم الكفر والالحـاد الفاضح » .

« وقـد سيق من بقي حياً الى آياسلوق . لـم تنجح أبشع وأقسى ألوان التعذيب التي تعرّض لها مصطفى في ثنيه عن ايمانه الراسخ ، فصلب على صليب مـن الخشب وحُمّل على ظهر جمل ليطوفوا به في المدينة وليكون مهزلة وعبرة للناس . أمـا مريدوه الصادقون الذين أبـوا أن يتخلوا عنه فقد تم ذبحهم أمـامه . وكان هؤلاء يودعون الحياة في لحظاتهم الأخيرة وهم ينشدون أحـد أناشيدهم الحماسية » .

« وأخيراً قطعوا بركلوجه ارباً اربـاً ، وطـافوا على الولايـات العشر ليقضوا على بـاقي أعـوانه من جهة ، وليكافئوا أعوانهم وعملاءهم من البيكوات . وبعد ذلـك توجّه بايزيد باشا الى مانيسا حيث عثر على كمال طورلاق وشنقه » .

« في هذه الأثناء كانت أوضاع بدرالدين في بحـر الأشجار في تقـدم وازدهار . وقـد تجمّع حوله عـدد كبير من الناس القادمين من كل الجهات . وعلى العموم كان هذا وشيك الاندماج الكامل بالشعب وتولي قيادته ، مما أوجب أن يقوم السلطان محمد بالذات بالتحرك » .

« بتوجيه من بايزيد باشـا تسلل عدد من الأشخاص الى تنظيمات القاضي بدرالدين وحلقات مريديه . واستطاع هؤلاء باتباعهم عـدداً من الألاعيب والحيل أن يستفردوا

بالشيخ في الغابات وأن يوثقوا رباطه وأن يكبّلوه بالقيود ... » .

« ثم جلبوه الى السلطان محمد في سيرز . وكان هناك مستشار أتى لتوه من بلاد العجم يدعى مولانا حيدر يرافق السلطان محمد باستمرار . وأصدر هذا « المولانا حيدر » فتواه قائلا : « شرعاً : قتل هذا حلال ، ولكن أمواله حرام ! » .

« ومن هناك نقلوا ابن قاضي سيماونه الى السوق وعلّقوه عند باب أحد الدكاكين مشنوقاً . وبعد عدد من الأيام جاءت مجموعة من أتباعه الجنب وسرقوا جثته . ولا يزال يوجد في تلك الديار أناس من أتباعه » .

رأسي يكاد ينفجر . نظرت الى الساعة . لقد توقفت . أصبح صليل السلاسل الحديدية في الطابق العلوي أقل من ذي قبل . واحد فقط كان يتحرك . ربما يكون ذلك المتوحد الذي اعتاد أن يجلس في النافذة الشمالية .

أحس في أعماقي بحاجة الى سماع أغنية من أغاني الأناضول. يخيّل اليّ أنه لو بادر نزلاء مهجع قطّاع الطرق الى تلاوة تلك الأغنية الجبلية الرائعة لزال صداعي تماماً .

أشعلت لفافة أخرى . انحنيت الى الارض الاسمنتية ورفعت رسالة محمد شرف الدين أفندي من هناك . عصفت رياح هوجاء في الخارج وراحت تزأر بقوة مغطية على أصوات سلاسل القيود والصفارات والبحر الكائن تحت نافذتنا . من المؤكد أن نافذتنا هذه تشرف على بقعة صخرية . وكم من مرة أردنا أن نرى تلك البقعة الكائنة عند خط التقاء البحر بسور

سجننا ! ولكن المرء لـم يكن ليستطيع أن يمد رأسه الى خارج النافذة • فالقضبان الحديدية قريبة جـداً من بعضها • ونحن من هنا لـم نكن نرى البحر الا في حالة امتداده الى الأفق •

فراش الطورنجي شفيق بجانب فراشي • تقلّب شفيق في نومه وهو يغمغم ببعض العبارات غير المفهومة مما أدى الى ازاحة اللحاف الذي أرسلته زوجته ، وهو لحاف جهاز عرسه ، عنه • فأعـدت اللحاف الى مكانه •

فتحت الصفحة الخـامسة والستين من رسـالة مدرّس تاريخ الكلام في كلية اللاهوت (الشريعة) مرة ثانية • ومـا أن قرأت سطرين مما كتبه كاتب أسرار الجنويين حتى طرق سمعي صوت اخترق حجاب آلام الصداع التي كنت أحس بها • وكـان هذا الصوت يقول :

ــ انني قادم اليك من فوق أمواج البحر دونما ضجيج •••

تلفتت حولي لأرى شخصاً خلف النافذة المطلة على البحر • وهذا الشخص هو الذي كان يتكلم ويقول :

« ــ هل لك أن تنسى مـا كتبه دوكاس كاتب أسرار الجنويين ؟ ألا تذكر ذلـك الراهب الكريتي الذي كـان يقيم في الدير الذي كان يحمل اسم تورلوت ؟ ذلك الراهب الناسك الـذي تحـدّث عنه دوكاس ؟ فأنـا واحـد من « دراويش » بوركلوجه مصطفى ، ألا يسعني أن آتي اليك مثل ذلك الناسك الكريتي مكشوف الرأس حافي القدمين ملفوفـا بعباءة بيضاء ناصعة من فوق أمواج البحر ؟ » •

أمعنت نظري في هذا الذي يقول هذا الكـلام منتصباً خلف النافذة واقفاً بطوله رغم استحالة تمسكه بأي شيء على الجدار •

لقد كان كما قال تماماً ملفوفاً بعباءة بيضاء ناصعة •

والآن ، بعد انقضاء سنوات عديدة ، أفكر بمدرّس كلية اللاهوت (الشريعة) وأنا أكتب هذه الأسطر • انني لست على علم ما اذا كان شرف الدين أفندي قد مات أم أنه لا يزال حياً • غير أنه ، اذا كان حياً ، سيقول لدى قراءة ما أكتبه الآن كلاما كالتالي :

« يا للعين ! من جهة يزعم أنه من الماديين ومن جهة ثانية لا يتورع عن الاستغراق ، مثل الناسك الكريتي ، في الحديث ، رغم انقضاء مئات السنين ، عن كونه تكلّم مع أحد مريدي بوركلوجه الذي قطع البحار دون ضجيج » •

ويخيل لي أيضا أنني أسمع الضحكات السماوية التي سيطلقها أستاذ تاريخ الكلام بعد قوله لمثل تلك العبارة •

لا بأس فليستمر حضرته في اطلاق قهقهاته ! أما أنا فسأتابع رواية ملحمتي •

وفجأة توقف صداعي • وخرجت من فراشي لأتوجه مباشرة نحو الذي خلف النافذة • فأمسك بيدي • تركنا السجناء البالغ عددهم ثمانية وعشرين ، عداي أنا ، في المهجع النائم ملتفاً باسمنته المتعرق • وبعد لحظة وجدتني فوق الصخور عند التقاء البحر بالسور في تلك البقعة التي لم نستطع أن نراها مهما حاولنا • وجنباً الى جنب مع تلميذ بوركلوجه عبرنا ، دونما ضجيج، أمواج البحر الداكن قاطعين السنين والقرون حتى وصلنا الى عصر الجلبي السلطان محمد المعروف باسم السلطان غياث الدين أبو الفتح محمد بن ابن يزيد الكرشجي •

ان القصة المثيرة التي أريد أن أرويها لكم هي قصة هــذه الرحلة • فأنــا سأحاول أن أصور لكم المشاهد التي رأيتها خلال هذه الرحلة بأصواتها وألوانها وحركاتها وصَيغها مشهدا مشهدا مستخدما تتيجة عــادة قديمة اعتدتهــا أسطراً قصيرة حيناً وطويلة حيناً آخر مع اللجوء الى القوافي من حين لآخر •

وفيما يلي روايتي :



- ١ -

على الديوان كان غطاء من حرير بورصه مخطط بالأحمر والأخضر
وعلى الجدار كانت لوحات الصيني الكوتاهيه كحديقة زرقاء
وكان خمر في الأبـاريق الفضية
وفوق الصواني النحاسية كانت خرفان، مشوية ، محمرّة كالجمر .
بعد أن خنق أخاه من أمه وأبيه ، أخاه موسى ، بوتر القوس ،
وبعـد أن توضأ بدمِ الأخوة في انـاء من الذهب
اعتلى الجلبي السلطان محمد العرش وصار ملكاً .
لقد أصبح الجلبي ملكاً ولكـن
الرياح التي عصفت ببلاد آل عثمان
كانت صرخات عقم ، وحداءات موت .
كانت الزعامة الفروسية أنوار عيني الفلاح
وكان التيمار عرق جبينه .
على الينابيع انتصبت قامات الفرسان السباهيين ذوي الشوارب المعقوفـة
بجانب الجرار المحطمة العطشى .
وفي الدروب كـان المسافر

يسمع نحيب الانسان الذي لا أرض له
والأرض التي لا انسان لها •
وفي ملتقى الدروب عند باب القلعة حين صلصلت السيوف
وحمحمت الخيول المزبدة
بترت جماعات الحرف آمالها من أي شفيع
واسودّ وجه الكون •
هكذا كان ملك وكان تيمار وكانت رياح
وكان الظلام •

- ٢ -

هذه البحيرة هي بحيرة ازنيق
راكــدة .
داكنة .
عميقة .
هي في قلب الجبال
مثل مياه بئر .

بحيراتنا هنا
مكللة بالضباب
لحوم أسماكها قــاسية ،
تأتينا الملاريا من حشائش المستنقعات ،
وانسان البحيرة
يموت قبل أن تشيب شعرة واحدة من لحيته .
هذه البحيرة هي بحيرة ازنيق .
بجانبها بلــدة ازنيق .
وفي قصبة ازنيق هذه
ترى سندان الحدادين وقد غدا مثل قلب محطّم .
أطفالها جياع .
أثداء نسائها شبيهة بفراخ الأسماك المقددة .
شبّانها عازفون عن الغناء .

هذه القصبة هي قصبة ازنيق •
وهذا البيت هو واحد من بيوت حي الحرفيين
في هذا البيت شيخ يدعى : بدرالدين
قصير القـــامة
طويل شعر اللحية
أبيض شعر اللحية •

عيناه الغائرتان الطفلتان تشعان ذكاء
أصابعه الصفراء مثل أصابع عازف الكمان
انه بدرالدين
جالساً على فروة خروف أبيض
بالخط الرقعي الرائع يكمل كتابة
« التسهيل »
بجـــانبه ركعوا
وأمـــــامه
ينظرون اليه كما لو كانوا ينظرون الى قمة جبل
وهو ينظر ليرى أمـــامه :
حليق الـــرأس
كثيف الحاجبين
طويل القـــامة
مصطفى بوركلوجه النحيل


Aliki

ويـرى
كمال طورلاق ذو العرف النسري •
انهم يحدقون في بدرالدين الذي نفي الى ازنيق
دو نما كلل أو ملل
ولا يرتوون •

- ٣ -

على الشاطىء امرأة تنتحب حافية القدمين
وفي البحيرة قـارب
للصيد انقطعت حباله
يسبح فوق سطح المـاء
مثل جسد طـائر ميت •
يذهب الى حيث يـأخذه اللج ،
يذهب ليتحطم على الأمواج العاتية •

حلّ المساء على بحيرة ازنيق
ضرب سباهيو الجبال ذوو الأصوات
الخشنة رقبة الشمس
فاسألوا دماءها الى البحيرة •

على الشاطىء امرأة تنتحب حافية القدمين
انها زوجة صياد السمك الذي ربط بالسلاسل
الى أسوار القلعة بسبب فرخ من فراخ السمك
حلّ المساء على بحيرة ازنيق ،
انحنى بدرالدين الى المـاء
ملأ يديه ثـم انتصب
وعندما كانت المياه تنساب من بين أصابعه

لتعود الى البحيرة
قال لنفسه :
« ـ تلك النار المضطرمة في قلبي
زادت أواراً
يوماً بعد يوم .
وحتى لو كان قلبي من الحديد الصلب
لما استطاع الاحتمال ، لذاب دون شك ...
لقد عزمت على الثورة والعصيان
انني ذاهب لتحرير الأرض يا ورثة الأرض !
بقوة العلم ، بسر التوحيد المتحقق
سنقوم بالغاء الحدود التي تفصل بين الأمم والمذاهب ... »

في صباح اليوم التالي
يتحطم القارب في عرض البحيرة
ويتدحرج رأس مقطوع من القلعة
وتقف على الشاطىء امرأة منتحبة
وأثناء قيام ابن سيماونه باتمام
« تسهيل »
لثم
كل من كمال طورلاق ومصطفى
يد شيخهما .

وقاما بشد سروج الخيول الحمراء
وخرجا من بوابة ازنيق
من أوساطهم تتدلى السيوف المجردة من أغمادها
وفي الخرج الذي حملاه معهما كتاب مخطوط باليد
اسم الكتاب ، كتابهم كان
« الواردات » .

- ٤ -

عندمـا لثم بوركلوجه وكمال طورلاق يد بدرالدين وانطلقا مستطيين جواديهما أحدهما باتجـاه آيدن والآخر نحو مانيسا ، توجهت أنـا الآخر مصطحبا دليلي باتجـاه قرى قونيه وبلداتها ، ولدى وصولنا الى سهل هايمانا في أحـد الأيام :

سمعنا نبأ تمرّد مصطفى
في بلدة آيدن بمنطقة قره بورنو (المنقار الأسود)
حيث تلا كلام بدرالدين
على أسمـاع الفلاحين .

وسمعنا أنه « بغية تحرير جميع الناس من البؤس
تم توزيع لحم الأرض الشبيهة ببشرة فتاة في الخامسة عشرة
بـالغة النظافة
بعد انتزاعها من تيمار البيكوات الطغاة وزعاماتهم
وبعـد قطع رؤوس جميع الآغوات بالسيف » .

وسمعنا أنـه ...
هل يمكن القعود بعد سماع مثل هذه الأنباء ؟
وذات سـاعة صباحية مبكرة
بينما كان طائر غريب يغرد في سهل هايمانا ،
أكلنا حبات زيتون تحت شجرة صفصاف ذاوية .



قلنـا
« لنصل »
قلنـا
« لنرَ »
وقلنـا
« لنندفع نحن أيضاً ، ولنمسك بمقبض المحراث
لنفلح أرض أخينا ذلـك الفلاح معاً » .
واجهتنا الجبال الشاهقة
تجاوزنـا الجبال الشاهقة ...

أيهـا الأصحاب ،
أنـا لا أسافر وحيداً ،
عند الأصيل ، قلت لرفيق طريقي المحبوب :
لقـد أتينا
هيا أنظر !
بدأت الأرض أمامنا تضحك مثل طفل
هي الأرض نفسها التي كانت تبكي قبل خطوتين .
أنظر الى حبات التين الشبيهة بقطع الزمرد الكبيرة
وجذوع الكروم تكاد تتكسر من ثقل العناقيد المتكهربة
أنظر الى فراخ السمك التي تلعب في السلال
جلودها المبللة تتلألأ ، بقعها المحرشفة
لحمها الأبيض لذيذ مثل لحم الخرفان الصغيرة المعلوفة

قلت لــك أنظر واسمع :
ان الانسان هنا خصب
مثل الأرض ، مثل الشمس ، مثل البحر •
والبحر والشمس والأرض معطاءة مثل الانسان •

- ٥ -

عندما دخلنا مناطق بوركلوجه مخلفين وراءنا أراضي التيمار والزعامات الطاغية التابعة للطاغية الأكبر التقينا بادىء الأمر بثلاثة شباب كانوا يرتدون لباساً أبيض دون خياطة ، بسيطاً مثل رداء الدليل الذي كان يرافقني • كان أولهم ذا لحية سوداء فاحمة ومجعدة ، وذا عينين حذرتين بالسواد نفسه ، وذا أنف كبير مقوس • قيل انه كان سابقاً من أتباع الديانة الموسوية غير أنه الآن أصبح من مريدي بوركلوجه •

أما الثاني فكانت ذقنه ملتوية ويحمل أنفاً مستقيما تماما • علمنا أن هذا بحار من الروم من أهالي صاقيز • وهو الآخر من تلامذة بوركلوجه •

وكان الثالث رَبْع القامة عريض الكتفين • ولدى استعادة صورته الآن أجده شبيها بحسين ذلك الذي يغني أغاني الجبال وهو من نزلاء مهجع قطّاع الطرق • غير أن حسين هذا كان من أرضروم في حين أن الآخر هو من آيدن •

بادرنا هذا الآيدني بالكلام قائلا :

— هل أنتم أصدقاء أم أعداء ؟ اذا كنتم أصدقاء فأهلا بكم وسهلا • أما اذا كنتم أعداء فرقابكم أدق وأوهى من الشعر •

— بل نحن أصدقاء •

وعلمنا في تلـك الأثناء أن جماعتنا دحروا ، عند الممرات الجبليـة الضيقة في قره بورنو ، من قبل جيش سيسـان والي صاروخان، أي اولئك الذين يريدون اعادة الاراضي الى البيكوات الطغاه •

وأعاد ذلك الشبيه بحسين نزيل قطّاع الطرق الكرّة وقال :

ــ اذا كانت حبات التين على هذه الدرجة من اللذة والحلاة كالعسل ، واذا كانت السنابل مملوءة بالحب وكثيرة الغلال ، اذا كانت حبات الزيتون ممتلئة الى هذه الدرجة بالزيت هذا العام على مائدتنا الأخوية المشتركة الممتدة من هنا وحتى البحر المتلاصق مع قره بورنو ، اذا كان ذلك كله كما قلنا فان السبب يكمن في أننا قمنا بارووائها جميعا بدماء اللصوص الذين يرتدون القمصان السوداء •

كانت البشارة عظيمة ، وعلّق دليلي قائلا :

ــ اذن لنعد بسرعة ولنبلّغ بدرالدين ما سمعناه •

مصطحبين البحار الرومي آنستاس من صاقيز توغلنا في ظلام آل عثمان ثانية مخلفين وراءنا مناطق الأخوة التي لم نكد ندوس ذيولها •

وجدنا بدرالدين في ازنيق عند شاطىء البحيرة • كان الوقت صبحاً • كان الجو رطباً يبعث على الضيق •

قال بدرالدين :

ـ جاءنا الدور الآن . هيا لنعبر الى الروملي !

غادرنا ازنيق ليلا . كان الفرسان يتعقبوننا . وكان الظلام يشكل حجاباً بيننا وبينهم . ومن خلف هذا الحجاب كنا نسمع أصوات نعال الخيل . الدليل في المقدمة وجواد بدرالدين بين جوادي الأحمر وجواد آنستاس . كنا ثلاث أمهات وبدرالدين طفلنا . كنا نرتجف خوفاً وقلقاً على بدرالدين . كنا ثلاثة أطفال ، وبدرالدين أبونا . فكلما بدت أصوات نعال الخيل القادمة من خلف الظلام مقتربة كنا نسارع الى الاقتراب من بدرالدين ونندس فيه !

بالتخفي نهاراً ومتابعة المسير ليلا وصلنا الى اسفانديار حيث ركبنا احدى السفن .

- ٦ -

ذات ليلة من الليالي كانت النجوم
واحدى السفن الشراعية فقط في أحد البحار •
ذات ليلة كانت احدى السفن الشراعية وحيدة مع النجوم
في أحـــد البحار •
النجوم لا عــدّ لها ولا حصر
الأشرعــة مطفأة
المياه داكنة الظلمة
والبصر يمتد مستقيماً الى ما لا نهاية •
آنستاس الأشقر وبكر الجزيري
على المجــاذيف •
صالح قوج وآنــا
في مقــدمة السفينة •
أمــا بدرالدين
فكان يصغي الى ضربات المجاذيف
داســاً أصابعه في لحيته •
قلت :
ــ أيــا بدرالدين !
لا نرى شيئا غير النجوم
فوق الأشرعة النائمة •

والأجواء ليست مشبعة بالهمس والوشوشات
ونحن لا نسمع أي ضجيج
من أعماق البحر •
ان المــاء الأسود صامت تماما
لا شيء الا نوم هذا المــاء •
ضحــك
العجوز الصغير ، لحيته البيضاء أطول منه ،
وقـــال :
ـ لا يخدعنك سكون الأجواء
فالبحار تغط في النوم وتغط لتستيقظ فجأة •

ذات ليلة كانت النجوم المتفردة في أحد البحار
وكانت سفينة شراعية •
ذات ليلة كانت احدى السفن الشراعية تعبر البحر الأسود
الى الغابة المجنونة (الى دلي أورمان)
الى بحر الأشجــار •••

- ٧ -

ها هي غابة دلي أورمان (الغابة المجنونة) لقد وصلنا
ونصبنا خيمتنا في بحر الأشجـــار .
وحتى يعرف الناس أننا جئنا
أننا هنا لمتابعة العمل
أطلقنا نسراً من كل غصن الى كل قرية .

وعـــاد كل نسر يتقدم مئة من الأسود .
جاءنا الفلاح والصانع بعد احراق زرع البيكوات والسوق
جاءنا الشعب كله محطماً قيوده
ها ان جميع أنصارنـــا في الروملي قـــد اجتمعوا
جاؤوا أنهاراً أفواجاً الى بحر الأشجار ...
وها قد قامت القيامة الحمراء !
اختلط الحـــابل بالنابل
اختلطت قطع اللحم البشري مع الرمـــاح
والحديد وأوراق الشجر والجلود
مع أغصان اللبلاب ، مع جذور السنديان .
مـــا من أحد سبق له أن رأى عالماً كهذا
وما من أحد سبق له أن سمع مثل هذا الضجيج
منذ أصبحت الغابة المجنونة مجنونة ...



- ٨ -

تركنا آنستاس في مقر جيش بدرالدين ونزلنا ، أنا والدليل، الى غلي بولو Gelibolu ، كان ذلـك نتيجة مؤامرة مـا على الأغلب . قطعنا البحر سباحة الى الشاطىء المقابل . الا أن الذي جعلنا سريعين مثل السمك لم يكن شوقنا الى مشاهدة وجـه حسناء في ضوء القمر ، بل انجـاز مهمة ايصال أخبار من الشيخ الى تلميذه مصطفى هذه المرة ، الى قره بورنو عن طريق أزمير .

ولدى وصولنا الى أحد خانات المسافرين بالقرب من أزمير سمعنا أنباء قيام بايزيد باشـا الممسك بيد ابن الملك البالغ مـن العمر اثني عشر عاما بتجميع جيوش الأناضول وحشدها .

لم نضـع كثيرا من الوقت في أزمير . وعند خروجنا مـن المدينة باتجـاه الطريق المؤدي الى آيـدن التقينا بأربعة مـن الجلبيين . كانوا يتسامرون ويأخـذون قسطاً مـن الراحة تحت شجرة جوز كبيرة في أحد البساتين وقد أغرقوا عدداً من رؤوس البطيخ في البئر لكي تبرد . كانوا يرتدون ألبسة مختلفة ، ثلاثة منهم اعتمروا العمائم والـرابع كان يلبس طربوشـاً . تبادلنا التحية . وعرفنا أن أحـد أصحاب العمائم هو « نشري » ، قال

ــ قرر السلطـان محمـد توجيه بايزيـد باشا لمحـاربة بوركلوجه الذي يدعو الشعب الى اعتناق مذهب الاباحية .

وردّ عليه صاحب عمامة آخر هو شكرالله بن شهاب الدين كما قيل :

ـ لقد تجمع عدد كبير من الناس حول هذا الصوفي . وما أكثر الممارسات المناقضة للشريعة المحمدية في أعمال هؤلاء !

أما ثالث أصحاب العمائم ، وهو عاشق بيشه زادة كما قيل ، فقد علّق قائلا :

ـ سؤال عندما يجري تقطيع جسد بوركلوجه في النهاية ، هل سينتقل الى العالم الآخر بايمان أم بدون ايمان ؟

ـ جواب الله وحده يعلم ، لأننا عاجزون عن معرفة حالته لحظة الموت ...

ونظر معتمر الطربوش ، وهو جلبي يتولى وظيفة مدرّس تاريخ الكلام في كلية اللاهوت (الفقه ـ الشريعة) ، الى وجهينا . وابتسم بكثير من الخبث غامزاً بكلتا عينيه . غير أنه لم يقل شيئاً .

أما نحن فاستثرنا جوادينا بالمهاميز . وانطلقنا مخلفين أولئك الذين كانوا يتسامرون ويبردون البطيخ في ماء البئر تحت شجرة جوز في أحد البساتين ، خلف غبار حوافر جوادينا الى آيدن ، قره بورنو ، والتقينا ببوركلوجه هناك .

- ٩ -

كــان الحر شديداً
شديــداً .
كان الحر سكيناً دامي القبضة
مثلوم النصل .
كان الحر شديداً .
كانت الغيوم حبلى ، ثقيلة
توشك الغيوم أن تفرغ حمولتها
توشك أن تفرغ .
هو نظر دون أن يتحرك ،
ثم هبط من فوق الصخور
الى السهل عيناه مثل نسرين .
هناك حيث الأنعم والأصلب
حيث الأرسخ والأكثر كرمــاً
حيث الأكثر
حباً
حيث الأعظم ، الأروع جمالا بين النساء
هناك الارض
الموشكة على الولادة
ها قــد وضعت !



كان الحر شديداً •
ونظر من فوق جبال قره بورنو
نظر الى الأفق الذي يحـد هذه الأرض
عـاقداً حاجبيه :
ورأى حريقاً هائلا تعلوه خمسة ألسنة عملاقة من اللهب
مالئاً الأفق بالمقـابل
حريقاً يجر خلفه صرخات نحيب العراة الحادة ،
حريقاً يقطع رؤوس الأطفال
مثل زنـاة الأرض العتاة •
كان هذا القـادم
الشاه زادة مـراد
لقد صدر قرار هومايوني (ملكي) بتكليف شاه زادة مراد بالاسم
أن يتوجه الى منطقة آيـدن
لمنازلة الملحد مصطفى خليفة بدرالدين •

كان الحر شديداً •
نظر الملحد مصطفى خليفة بدرالدين ،
نظر الفلاح مصطفى ،
نظر دون خوف
دون غضب
دون ضحك •



نظر نظرة ثــاقبة

مستقيمة .

نظــــر
الى هناك حيث الأنعم والأصلب
حيث الأرسخ والأكثر كرمــاً
حيث الأكثر
حباً
حيث الأعظم والأروع جمالا بين النساء
هناك الارض
الموشكة على الولادة
ها قــد وضعت !

نظــر هو .
ونظر أبطال بدرالدين من أعالي الصخور نحو الأفق .
وشيئاً فشيئاً كانت تقترب نهــاية هذه الأرض
على جناحي بومة تحمل فرماناً صادراً عن الملك .
وكان هؤلاء قــد فتحوا هذه الأرض ،
هؤلاء الذين ينظرون من أعالي الصخور أنفسهم ،
بأعنابها وتينها ورمــانها
بقطعانها ذات الصوف الشبيه بلون العسل
ذات الألبان الأشهى من العسل
بجيادها الممشوقة ذوات أعراف الاسود .



كانوا قد جعلوا هذه ارض دون جدران ودون حدود
جعلوها مبسوطة مفتوحة مثل مـــائدة أخوية .

كان الحر شديداً .
نظـــر هو .
ونظر أبطال بدرالدين نحو الأفق ...
الى هناك حيث الأنعم والأصلب
حيث الأرسخ والأكثر كرمـــاً
حيث الأكثر
حباً
حيث الأعظم ، والأروع جمالا بين النساء
هناك الأرض
الموشكة على الولادة
ها قـــد وضعت !

كان الحر شديداً !
كانت الغيوم حبلى ، مثقلة بالأحمال
كانت قطرات المطر الأولى مثل الكلام الجميل وشيكة
السقوط على الأرض ..
وفجـ ...
أةّ ــــ

الآلاف العشرة قدّموا ثمانية آلاف منهم ...
ليستطيعوا أن يقولوا
معاً كنا !
في كل مكان

معاً وبصوت واحد غنينا
معاً سحبنا شباك الصيد من الماء
معاً نحتنا الحديد وزخرفناه
من أجل أن نكون معاً جميعا عند فلاحة الأرض
من أجل أن نستطيع تذوق التين العسل سوية
من أجل أن نقتسم كل شيء
عدا وجنة الحبيبة .

ُهزموا .

وراح المنتصرون يمسحون
سيوفهم المدماة
بأثواب المهزومين البيضاء غير المخيطة
ومثل أغنية جماعية ينشدها الجميع سوية
حُفِرَت الأرض المشغولة بالأيدي المتآخية معاً
بسنابك الجياد
المطهمة المعلوفة في قصر أدرنه .

كانت تلك نتيجة حتمية
للظروف التاريخية ، الاجتماعية ، الاقتصادية !
لا تقل لي ذلك !
أنا الآخر أعرف !
وأحني رأسي اجلالا لما تقول .
غير أن هذا القلب
لا يجيد تلك اللغة .
فهو يقول : « اللعنة عليك أيها الفلك الأحدب
« عليك اللعنة أيها الزمن العاهر ! »
واحداً اثر واحد

خلال لحظة عابرة

على أكتافهم بقع سوداء ، زرقاء ، من لسعات الكرابيج
وجوههم غارقة في الدم ،

يمرون وهم يدوسون قلبي بأقدامهم الحافية ،

يمر مهزومو قره بورنو من أعمال آيدن ...(*)

(*) الان وانا اكتب هذه الاسطر اتخيل بعض الشباب الذين يزعمون انهم « يساريون » ، اتخيل هؤلاء الذين سيقولون كلاما من قبيل « ماذا فعل هذا الرجل ! انه يفصل بين عقله وقلبه ، يا له ! انه يجرؤ على ان يقول رغم ان عقلي يقبل بالظروف التاريخية والاجتماعية والاقتصادية فان قلبي يضطرم ، ليحرق ويحترق يا له من ماركسي !.. » انني اتخيل ذلك مثلما تخيلت في البداية مدرس تاريخ الكلام وكدت اسمع قهقهاته المجلجلة

وما استطرادي هذا من أجل ذلك النوع من الشباب ، بل هو من أجل أولئك الذين بدأوا لتوهم بقراءة الماركسية ، أولئك البعيدون كل البعد عن استخدام الماركسية طريقا للبروز والتألق

لو أصيب ابن أحد الإطباء بالورم ، ولو ادرك هذا الطبيب أن موت ابنه مؤكد ، فقبل به على أنه حتمية فيزيولوجية ، بيولوجية ، وما لا أدري من « اللوجيات » ، فهل يمتنع هذا الطبيب الواقف على الحقيقة عن ذرف ولو دمعة واحدة حزنا على ابنه المتوفي ؟

الم يذكر ماركس ، وبأعمق اعماقه مثل « أغنية بالغة الحزن » ، شهداء الكومونة الكبار رغم معرفته المسبقة الاكيدة بأن الكومونة ستهزم ، ورغم اطلاعه الكامل على سائر الشروط التاريخية والاجتماعية والاقتصادية المؤكدة لمثل ذلك السقوط ؟ ألم تكن دمعة حرى ، ولو دمعة واحدة ، في أصوات الذين كانوا يهتفون بأعلى أصواتهم قائلين « ماتت الكومونة ! عاشت الكومونة ! » ؟

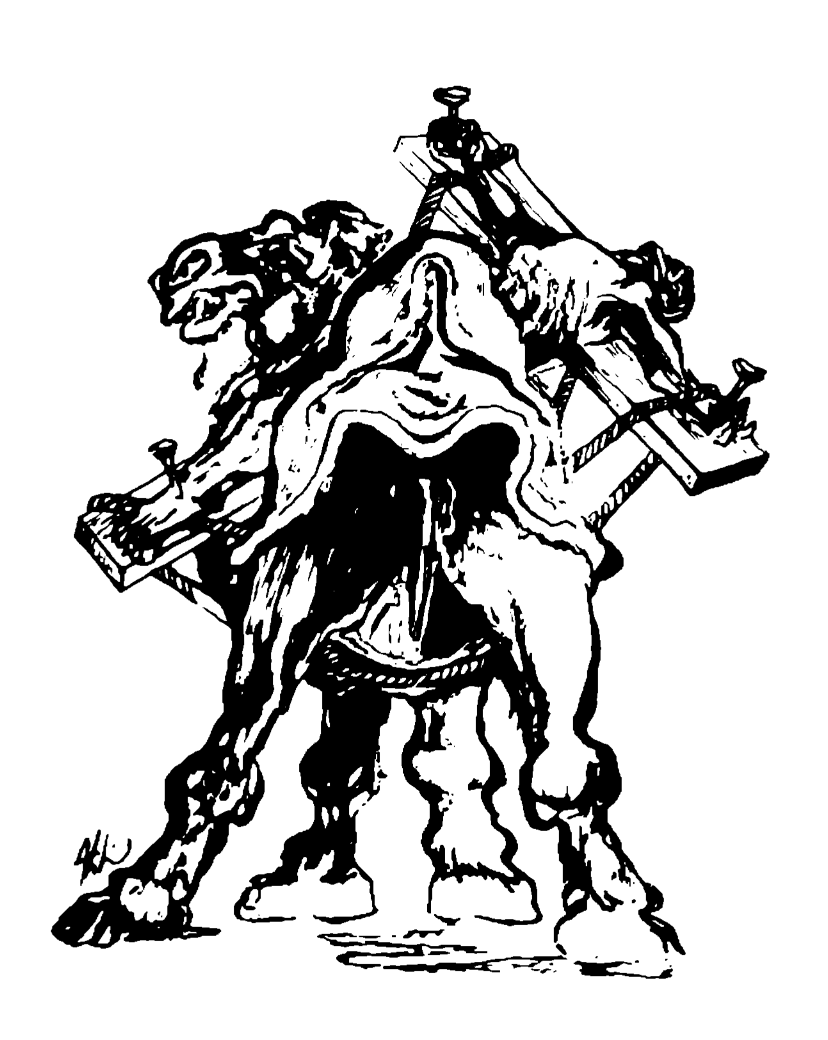
ليس الماركسي رجلا آليا ، انه انسان مجسد ملموس تاريخي واجتماعي ، بلحمه ودمه وأعصابه وبعقله وقلبه

- ١٠ -

وقفوا في وسط الظــلام •
هو أخــذ الكلام ليقول :
« ــ أقاموا معرضاً في مدينة آياسلوك
وهناك أيضا ضربوا العديد
من أعناق الأحبة والرفاق ! »

كان المطر يهطل مدراراً
دون انقطاع
أخذوا الكلام وقالوا لــه
« ــ لم يقيموا المعرض بعــد
الا أنهــم
سيقيمونــه •
لم تهدأ الرياح العاصفة بعد
الا أنهــا
ستهــدأ
لم يضربوا عنقه بعــد
الا أنهــم
سيضربونه » •
وعندما كانت الظلمة تبتل شيئاً فشيئاً
ظهرتْ حيث كــانوا

فأخذت الكلام وقلت :
« ــ أين هو باب مدينة آياسلوك ؟
دلوني ولأمر !
وهل لهذه المدينة سور ؟
قل حتى أهدمه .
هل يأخذون باجاً (ضريبة)
حتى لا أدفع ؟
رد هو عليّ قائلا :
« ــ بوابة آياسلوك ضيقة .
هي ليست للخروج بعد الدخول .
ولها سور
ليس من السهل هدمه .
أيا راكب الجواد الأحمر ، أيا بطل !
ارحل من هنا وتابع شؤونك ! »
قلت : « أدخل وأخرج ! »
قلت : « أحرق وأدمر ! »
قال : « توقف المطر
بدأت الغيوم تنقشع
وها هو الجلاد
ينادي
مصطفى !



أيا راكب الجواد الأحمر ، أيـا بطل !
ارحل من هنا وتابع شؤونك !... »
قلت : « ــ يـا رفاق
اتركوني
دعوني .
أيـا رفاق
دعوني أراه
دعوني أراه !
لا تظنوا
أنني لن أحتمل .
لا تظنوا
أنني غير قادر على أن أحترق
دون أن يرى الناس أنني أحترق .

يـا رفاق
لا تقولوا « لا »
لا تقولوا « لا » عبثاً
فهذا ليس تفاحة ستسقط عن أمها
ليس هذا تفـاحة ،
فهو لن يسقط من مكانه ولو كان جريحاً
هذا القلب
هذا القلب ليس شبيها بالدوري

ليس شبيهاً بالدوري !

أيها الرفـــاق
أنـــا أعلم !
أيها الرفـــاق
انني أعرف أين هو ، وفي أية حـــال !
انني أعرف
أن جسده العاري تماماً
مثبت على صليب مصبوغ بالدماء
فوق هودج أحـــد الجمال
مسمَّر من ذراعيه .
أيها الرفـــاق
اتركوني
اتركوني
أيها الرفـــاق
دعوني
أذهب لألقي نظرة عليه
دعوني
أرى مصطفى بوركلوجه أحد أتباع بدرالدين
مصطفى .

ألفان ممن ستضرب أعناقهم



مصطفى وصليبه
الجلاد ، الجذع ، الساطور ،
كل شيء جاهز
كل الأمور تامة •

سرج أحمر مزركش بالألوان
ركابتان من الذهب ،
وجواد أغبر •
على صهوة الجواد طفل ذو حاجبين كثيفين :
انه الشاه زادة السلطان مراد باديشاه آماسيا •
وبجانبه
بايزيد باشا الذي يحمل عدداً لا يحصى من الرياش على رأسه

أهوى الجلاد بساطوره •
انفلقت الرقاب العارية مثل الرمان ،
ومثل تفاحات تسقط من غصن أخضر
تساقطت الرؤوس واحداً بعد الآخر •
وكل رأس عند السقوط الى الأرض
نظر نظرته الأخيرة
الى مصطفى المشبوح على صليبه
وما من شعرة اهتزت لأي من الرؤوس الساقطة
بل اكتفى باطلاق بيت
من أغنية « دادا ••• » الجماعية •••

- ١١ -

ثم جاء بايزيد باشا الى مانيسا حيث ألقى القبض على كمال طورلاق وقام بشنقه ، وتم تفتيش عشر ولايات للقضاء على من ينبغي القضاء عليهم من أجل اعادة هذه الولايات لعبيد السلطان من البيكوات وأصحاب التيمار .

أنا ودليلي مررنا بالولايات العشر . كانت أسراب البزاة والطيور الجارحة تحوم فوق رؤوسنا ، وتنقض بين الحين والآخر مطلقة أصواتا عجيبة لتتسلل الى الوديان المظلمة بحثاً عن أجساد الفتيات والأطفال التي لم تجف دماؤها بعد . فعلى الرغم من أن أجساد الرجال الشباب منهم والمسنين كانت منتشرة بكثرة تحت الشمس وعلى جانبي الطريق ، كان تفضيل الكواسر للحم النساء الصغيرات والأطفال فقط انما يبين مدى شبع هذه الطيور الكاسرة .

وفي الطريق كنا نلتقي بوحدات جيوش البيكوات الطغاة .

كان البيكوات العبيد أتباع الطاغية وأدواته يعودون الى اقطاعاتهم ليتمركزوا فيها في ظل أجواء محملة برياح ثقيلة الحركة قابضة للنفس مثل أجواء كرم متعفن وعبر أرض متشققة ، حاملين ألويتهم المزركشة فاقعة الألوان محدثين الكثير من الضجيج بطبولهم ومزاميرهم . في هذه الأثناء غادرنا الولايات العشر . وشاهدنا غلي بولو Gelibolu في الجهة المقابلة .

حدثت دليلي قـائلا :

ـ لقد أنهكني التعب تماماً • ليس من الممكن أن أقطع البحر سباحة •

فعثرنا على قارب •

كان البحر هائج الأمواج • نظرت الى صاحب القارب • وجدته شبيهاً بالصورة التي اقتطعتها من الغلاف الداخلي لأحد الكتب الالمانية لأعلقها فوق رأسي في المهجع • شارباه الكثيفان بسواد الفحم ، لحيته عريضة وناصعة البياض • لم يسبق لي أن رأيت جبهة تتصف بكل هذا الوضوح ، جبهة تجيد الكلام •

وصلنا الى منتصف المضيق • البحر يجري دون توقف ، في الهواء الرصاصي تتدحرج كتل المياه مزبدة من قاعدة قاربنا ، وفي هذه الأثناء قال صاحب القارب الشبيه بالصورة المعلقة على جدار المهجع :

ـ ان الصراع بين الحر والعبد ، بين النبلاء والعامة ، بين الاقطاعي وقن الأرض ، بين المعلم والصانع ، بكلمة واحدة بين المضطهَدين والمضطهِدين استمر في تناقض لانهائي بين الفريقين مكشوفا حيناً وفي الخفاء حيناً آخر •

- ١٢ -

عندما وصلنا الى الروملي سمعنا أن الجلبي السلطان محمد جاء الى سيرز بعد رفع الحصار عن قلعة سلانيك • وبغية الوصول الى الغابة المجنونة (دلي أورمان) تابعنا المسير ليلا ونهاراً •

وذات ليلة ونحن نأخذ قسطاً من الراحة جالسين بجانب الطريق مرّ أمامنا ثلاثة فرسان قدموا من الغابة المجنونة وتوجهوا نحو مدينة سيرز ، وكنت قد رأيت على أحد الجياد طيفاً أميل الى السواد يشبه جسم الانسان يتدلى مثل الخرج • انتفضت ووقف شعر جسدي • قلت للدليل :

أنا أعرف أصوات هذه الحوافر المحددة •
فهذه الجياد الدهماء المدماة أعرافها
اعتادت أن تنقل الأسرى المربوطين خلف السروج
مندفعة بسرعة البرق في الطرقات المظلمة •
أنا أعرف أصوات هذه الحوافر المحددة •
فتلك
ذات صباح
تكون قد تسللت الى خيمتنا مثل أغنية صديقة •
ربما تقاسمنا معها رغيف الخبز •
ما أجمل الأجواء ،
ما أكبر آمال الفؤاد ،

عادت العيون طفلة
ونام صديقنا العظيم **الشك** •• غط في النوم •••

أنـــا أعرف أصوات هذه الحوافر المحددة •
فتلــك
ذات ليلة
ابتعدت كثيراً عن خيمتنا
وأغمدت الخنجر في ظهر الحـــارس
وهي الآن خلف السروج
تحمل معها أثمن ما عندنا
وذراعاه مربوطتان الى الخلف •

أنـــا أعرف أصوات هذه الحوافر المحددة •
والغابة المجنونة أيضاً تعرفها •••

وقبل انقضاء وقت طويل بلغنا أن الغـــابة المجنونة هي الأخرى عرفت أصوات هذه الحوافر • لأننا ما أن داست أقدامنا أطراف غابتنا حتى سمعنا أن بايزيـــد باشـــا أرسل عدداً مـــن جواسيسه وعملائه جنباً الى جنب مع ســـائر التدابير التي اتخذها ليتسللوا الى الغـــابة وليتوغلوا بـــين صفوف أتباع بدرالدين وليسعوا للوصول الى مقره ، ففعلوا • وانقضوا على شيخنا النائم في خيمته في احـــدى الليالي واختطفوه • ذلـــك يعني أن الخيالة

الثلاثة الذين رأيناهم ونحن في الطريق هم أسلاف سائر المخربين الذين ظهروا في التاريخ العثماني ، وبدرالدين هو الأسير الذي حملوه معهم .

- ١٣ -

الروملي ، سـيرز
وعبارة قديمة مركّبة :

حضرة الهومـايون
في وسط الساحة
منتصب مثل سيف دق في الأرض
عجوزنـا •

الطاغية في الطرف المقـابل •
نظر كل منهما الى الآخر •

كان الطاغية يريـد :
قبل بطح هذا الكفر المجسد أرضاً
لا بد من أن يقول كلمته الأخيرة قبل شنقه
ومن جهة أخرى لا بد من ابراز فضائل الشريعة
وذلك عن طريق تنفيذ العملية مع مراعاة المراسم والآداب •
حضر المجلس
ذلـك الذي يدعى بمولانا حيدر
القادم لتوه من بلاد العجم
يقوم بدور المستشار الشرعي العظيم

مسَّدَ لحيته المحناة وطلب الالهام الربـاني
ثم قـال :
« أملاكه حرام أمـا دمه
فحلال تماماً »
وحلّت المعضلة !•••

التفتوا الى بدرالدين
وقالوا : « تكلم أنت أيضاً »
وقالوا : « ادفع الآن ثمن الحادك » •

مـدّ بدرالدين بصره عبر الأقواس الى المدى •
كانت الشمس سـاطعة •
أغصان احدى الأشجـار في الباحة اخضرت ،
والحجارة تحتها المياه الجـارية •
تبسَّم بدرالدين •
ولمعت أعماق عينيه ،
قـال :
ــ طالما أننا مغلوبون هذه المرة
فلا فائدة من أي قول نقوله •
لـن أطيل الكـلام •
فالفتوى تخصنا
أصدروها ونحن نمهرها بختمنا •••

- ١٤ -

يهطل المطر وئيداً
خـــائفاً
بصوت خفيض
كما لو كان يروي حديث خيانة .

يهطل المطر وئيداً
مثل جري أقدام المرتد البيضاء الحافية
فوق أرض مبللة وداكنة .

يهطل المطر وئيداً
في سوق الحرفيين بسيرز ،
ومقابل دكانة أحــد النحاسين
نرى بدرالدين معلقاً على احدى الأشجار .

يهطل المطر وئيداً
في ساعة لا نجوم فيها من ساعات الليل الأخيرة ،
ان الذي يتبلل بالمطـــر
وينوس على غصن خـــال من الأوراق
هو اللحم العاري تماماً لشيخنا .

يهطل المطر وئيداً
لا لسان لسوق سيرز
سوق سيرز أصيب بالعمى •
الحزن اللعين لانعدام الكلام وانعدام الرؤية الذي لف الأجواء
جعل سوق سيرز يغطي وجهه بيديه •

ويهطل المطر وئيداً •

قميص الطورنجي شفيق

كان المطر يهطل وئيداً • لاحت تباشير الصباح على وجه السماء الغائمة فوق الأفق ، وفي الأفق الملاصق للبحر خلف القضبان الحديدية في الخارج • أتذكّر جيدا حتى هذا التاريخ • في بداية الأمر أحسست بيد تربت على كتفي • ولدى التفاتي رأيت الطورنجي شفيق • كان منبسط الأسارير تماماً وثبّت عينيه السوداوين الفاحمتين عليّ ليقول :

ـ لم تنم هذه الليلة على الأغلب •

أصوات صليل سلاسل من هم في الطابق العلوي كانت قد هدأت • لا بد أنهم غرقوا في النوم بعد أن طلع الصبح ، وأصوات صفارات الحراس فقدت معناها بعد انتشار نور النهار ، وأمحت أصباغها واحدودبت خطوطها القاسية التي لا تتضح الا في الظلام •

فتح باب المهجع من الخارج • الشباب في الداخل ينهضون بعد استيقاظهم واحداً بعد الآخر •

ويسألني شفيق :

ـ ما بك ؟ تبدو حالتك غير اعتيادية ؟!

فأروي لشفيق قصة رحلتي الليلية :

ـ لقد رأيت ذلك كله بأم عيني • لقد أتى الى خلف

هذه النافذة • وكان يرتدي قميصاً أبيض فضفاضاً • أمسكني من يدي • وقمت بالرحلة كلها معه جنبا الى جنب أو بالأحرى كان على الدوام دليلا لي يرشدني الى الطريق •••

ويضحك الطورنجي شفيق • ويلفت نظري الى النافذة ليقول

ـ أنت لم تقم برحلتك مع أحد مريدي مصطفى بل مع قميصي أنا • أنظر كنت قد نشرته هناك مساء البارحة ، وهو لا يزال هناك حتى الآن •••

فأضحك أنا الآخر وأمد يدي لآخذ من على القضبان قميص الطورنجي شفيق الذي كان دليلا لي في حركة بدرالدين ابن قاضي سيماونه • ويلبس شفيق قميصه • وذاعت أنباء « رحلتي » بين سائر الرفاق نزلاء المهجع • ثم يقول أحمد

ـ أكتب هذا • نريد منك « ملحمة بدرالدين » • وها أنا أيضاً سأروي لك قصة تجدر بأن تثبتها في آخر الكتاب •••

وفيما يلي القصة التي رواها أحمد أضعها في نهاية كتابي

القصة التي رواها احمد

كان ذلك قبل حرب البلقان ، وكنت في التاسعة من عمري . نزلنا ، أنا وجدي ، ضيفين على أحد الفلاحين في الروملي . كان الفلاح أزرق العينين نحاسي اللحية . شربنا عصيدة الكشك مضافة اليها كمية وفيرة من الفليفلة الحمراء . كان شتاءً ، كان واحداً من فصول الشتاء الجافة والحادة مثل سكين شديد الحدة المعروفة في الروملي .

لا أستطيع تذكر اسم القرية . الا أن الدركي الذي رافقنا حتى الطريق ، كان قد وصف أهلها بأنهم من أعند فلاحي العالم وأشدهم امتناعا عن دفع الضرائب وأكثرهم كبرياء واحساسا بالكرامة .

وبالنسبة للدركي لم يكن هؤلاء لا من المسلمين ولا من الكفار . ربما كانوا من القزيل باش (ذوي الرؤوس الحمراء) [وهذا الاسم لا يزال يطلق على أتباع الطوائف والطرق الدينية غير السنية حتى الآن ــ المترجم] ولكنهم لم يكونوا أيضاً من القزيل باش تماما .

لدى دخولنا القرية كانت الشمس موشكة على الغروب . والطرق كانت متجمدة لا يمكن متابعة السير عليها . وعلى الطريق كانت برك المياه المجمعة قد تحولت الى قطع من الزجاج



المتلألىء ...

استقبلنا عند مدخل القرية حيث السياجات الأولى التي بدأت تختلط بالظلام أحد الكلاب . كان كلباً كبيرا وبدا في أجواء العتمة أكبر مما هو عليه . وقد دأب على النباح .

سائق العربة التي كنا نستقلها شد اللجام . ولكن الكلب بقي مصراً على مهاجمة الجياد مقتحماً صدورها .

أخرجت رأسي من وراء ظهر سائق العربة لأرى « ماذا يحدث ؟ » . وفي هذه الأثناء ارتفع ساعد سائق العربة وبيده الكرباج بعد أن صدم وجهي بمرفقه ونزل الكرباج محدثاً صوتاً أشبه بصوت صفير الأفاعي على رأس الكلب . وفي هذا الوقت بالذات سمعت صوتاً أجش يقول :

ـ يا أنت هناك ... هل توهمت أنك قائم مقام وأن الذي تضربه هو أحد الفلاحين ؟..

ثم نزل جدي من العربة وحيا صاحب الكلب ذا الصوت الخشن « مرحبا ! » وجرى حديث بينهما . وبعد ذلك استضافنا صاحب الكلب ذو اللحية النحاسية والعينين الزرقاوين في بيته .

هناك العديد من الأحاديث التي سمعتها في طفولتي ولا تزال أصداؤها تتردد في أذني . ومع تقدمي في السن فهمت معاني تلك الأحاديث بأكثريتها : بعضها أثار دهشتي وبعضها الآخر أضحكني ، وبعضها الثالث استفز غضبي . ولكن أية من القصص التي سمعتها في طفولتي من أفواه الكبار لم تمارس تأثيرها عليّ طوال سني حياتي كما فعلت تلك المحادثة التي دارت بين الفلاح ذي العينين الزرقاوين وبين جدي تلك الليلة .

كان لجدي صوت ناعم متأنق كصوت المتأدبين من

الوعّاظ . أما الآخر فقد تحدث بصوت خشن أجش ، بصوت يدل على الايمان العميق .

كان ذلك الصوت الخشن العميق يقول

ظل الجسد العاري تماماً لبدرالدين والذي علّق على غصن شجرة جرداء من الورق هناك في السوق بمدينة سيرز تنفيذاً لارادة الطاغية وبالانسجام مع فتوى الملا الايراني حيدر ، ظلّ هذا الجسد يترنح الى اليمين حيناً والى الشمال حيناً آخر . وفي احدى الليالي ظهر من احدى زوايا السوق ثلاثة رجال ، أحدهم كان يقتاد جواداً احتياطياً ممسكاً برسنه بيده اليسرى . وكان هذا الجواد دون سرج . تقدم الرجال الثلاثة حتى وصلوا الى ما تحت الشجرة التي علّق عليها بدرالدين . من كان على اليسار خلع نعليه وتسلق الشجرة . أما الآخران فقد وقفا على الأرض بعد أن فتحا أذرعتهما . بدأ المتسلق على الشجرة بقص عقدة الحبل المشبع بالصابون المبلل والملتف مثل أفعى حول العنق النحيل لبدرالدين من تحت لحيته البيضاء الطويلة . وفي لحظة غفلة انزلق رأس نصل السكين من فوق الحبل لينغرز في عنق الميت الذي كان قد استطال . لم ينزف الجرح . امتقع لون بشرة الشاب الذي كان يحاول قطع الحبل . ثم انحنى على الجرح وقبّله ، وعاد الى وضعه . ألقى بالسكين بعيداً وراح يفكك العقدة المقطوعة الى نصفها بيديه ، وعندما انتهى أسلم جسد بدرالدين ، مثل أب يودع ابنه النائم في حضن أمه ، لأذرعة الشابين اللذين كانا ينتظران في الأسفل . وهذان بدورهما وضعا الجسد العاري على ظهر الجواد العاري . ونزل الشاب الذي كان فوق الشجرة الى الأرض . كان هذا أصغرهم سناً . وأتى مقتاداً



الجواد العاري المحمل بالجسد العاري الى قريتنا • وقـام بدفن الجثة في أعلى السفح هناك تحت الشجرة السوداء • غير أن خيالة الطاغية اقتحموا القرية فيما بعـد • ومـا أن رحل هؤلاء حتى بـادر الشاب الى رفع الجثة من تحت الشجرة السوداء خوفـاً من أن يعاود عساكر الطاغية الكرّة ويعثروا على الجثة • ولم يعد الشاب الى القرية ثـانية •

ويسأله جدي قـائلا :

ــ هل أنت واثق تمام الثقة من أن هذا حصل كما تقول ؟

ــ نعم ، بكل تـأكيد • لقد رواه لي جدي أبو أمي • وهو سمعه من جـده الذي سمعه من جده وهكذا •• لقـد تناقلت الأجيال هذه الرواية جيلا عن جيل •••

وفي الغرفة كان هناك ثمانية الى عشرة فلاحين ، سوانـا • كانوا يجلسون متحلقين عند أطراف الدائرة المضاءة مع اصطباغ بالحمرة حول الموقـد • وبين الحين والآخر يتحرك واحـد أو اثنان منهم فتصطبغ أيديهم وأجزاء مـن وجوههم وبعضاً مـن أكتافهم الممتدة نحو مركز الدائرة باللون الأحمر •

ثم أسمع صوت صاحب اللحية النحاسية :

ــ انه سيعود • ذلـك الذي علّق على الشجرة عاريـاً تماماً سيعود عارياً مرة أخرى •

ويضحك جدي ثـم يقول :

ــ ايمانكم هذا شبيه بايمان المسيحيين • فهم أيضا يقولون بـأن النبي عيسى سيعود الى العالم ثانية • بل وهناك اعتقـاد شائع بين صفوف بعض المسلمين يقول بـأن النبي عيسى سيظهر ذات يوم في الشام الشريفة •

ولم يكن الفلاح يرد على كلام جدي بصورة مباشرة • بل كان يسوي من جلسته ممسكاً بيديه وأصابعه الغليظة ركبتيه • ها قد أصبح الآن داخل الدائرة الحمراء بكل جسده • وأنا أرى أحد جانبي وجهه • كان يحمل في وجهه أنفاً كبيراً • وكان يتحدث وكأنه في شجار :

ـ يزعمون بأن النبي عيسى سيبعث حياً بلحمه وعظامه ولحيته وهذا غير صحيح • أما جثة بدرالدين فستعود الى الحياة بنظرات العيون وبكلمات اللسان وشهقات الصدر دون عظام ودون لحية وشوارب ••• هذا ما أنا موقن بأنه سيحدث ••• نحن من أتباع بدرالدين ولا نؤمن بالآخرة وبيوم القيامة حتى نصدق خرافة أن الجسد الفاني سيتجمع مرة أخرى لينبعث حياً • وعندما نقول بأن بدرالدين سيعود فاننا انما نؤكد بأن كلامه ونظرته وأنفاسه هي التي ستنبعث من بين صفوفنا •

توقف عن الكلام • وعاد الى جلسته الأولى • ولست أعرف ما اذا كان جدي قد آمن بأن بدرالدين سيعود ثانية أم لا • أما أنا فقد آمنت بذلك وأنا في التاسعة ، كما أومن الآن به بعد أن تجاوزت الثلاثين من عمري •

ذيل رسالة « ملحمة بدر الدين ابن قاضي سيماونه »

كنت أقوم باستعراض دفتر للمذكرات ملأته خلال ليالي السجن الطويلة وأقرأ تلك الملاحظات التي استندت اليها في كتابة « ملحمة الشيخ بدرالدين بن قاضي سيماونه » وذلك بعد عودتي من المطبعة صباحا حيث صححت الملزمة الرابعة من الملحمة المذكورة .

وأنا أعلم أن من المستحيل اضافة كلمة واحدة الى هذه الرسالة التي أصبحت ملزمتها الأخيرة تحت آلة الطباعة تذهب وتجيء . راودني شعور بأنني نسيت شيئاً ما . خُيِّل لي أنني نسيت أن أضع النقطة الأخيرة عند نهاية السطر الذي أنجزت كتابته .

كان الوقت يقترب من الظهر . وكانت رياح الجنوب الرطبة قد هدأت بعد افراغ طاقتها فوق الغيوم الثقيلة . تشقق الرداء الأسود للسماء وظهرت خطوط متوازية من الضوء . ثم توقف المطر هو الآخر قبل انقضاء وقت طويل . صفا الجو فجأة مثل نافذة سقطت ستائرها على حين غرة .

وفيما أنا غارق في دفتر مذكراتي الذي ملأت صفحاته خلال ليالي السجن أبحث عن تلــكِ النقطة التي نسيت أن أضمها في نهــاية « ملحمة » ي ، رأيت السليمانية .

تحت شمس الظهيرة التي تحررت لتوها من اســار الغيوم كانت السليمانية مثل جبل أسند ظهره الى الغيوم .

المسافة التي تفصل نافذة بيتي عــن السليمانية هي مسيرة ســاعة على الأقل . الا أنني الآن أراها وأتخيل أنني قادر على الامساك بها لو مددت يدي . قــد يكون ذلك عــائداً الى أنني معتاد على رؤية جميع تفاصيل السليمانية حتى أدقها وأنا مغمض العينين .

الريح والبحر وذلــك الجسر الحجري القديم المرفوع على أقواس بسيطة ونحيلة الى درجة يذهل المرء من قدرتها على حمله ، وأغنية « موعدنــا يوم الاربعاء جرفه السيل ! » « الزخرف » الكائن عن طرف اللوحة الزيتية ، مثلما أن كل هذه الأشياء ليست جامعاً وبمقدار مــا هي بعيدة عن أن تكون كذلــك فان مئذنة السليمانية مع جامعها هي الأخرى ليست مئذنة لجامع ، رغم رفع الآذان منها خمس مرات في اليوم ورغم كثرة التصاق الركب والجباه بحصرها فــان علاقة السليمانية بالجوامع هي على هــذه الدرجة من الوهن القريب من الانعــدام .

ان السليمانية ، في رأيي ، هي واحــدة من منتجات عبقرية الشعب التركي ، نتاج تحرر من ظلام الشريعة المجســدة والتعصب ليستند الى الحساب والمــادة ، الى التوازن الدقيق بين الحساب والمادة . انها بيت سنان ، ومعبد المــادة والنور . ومثلما تذكرت سليمانية سنان زاد ايماني بابداعه [illegible] ،

وأحسست كما لو غمرتني موجة عـارمة من الفرح .

وهذه المرة أيضا وأنـا منهمك بحثاً عن تلك النقطة الأخيرة التي توهمت أنني نسيت أن أضعها في نهـاية رسالة كتبتها حول واحدة من كبريـات حركات الشعب التركي ، عثرت فجأة على ما كنت أبحث عنه عندما رأيت سليمانيتنا مغمورة بأشعة الشمس المشرقة متلألئة بعـد اغتسالها بالمطر الذي كان يهطل قبل قليل . غمرني الفرح ، قرأت مـا عثرت عليه في الصفحات الأخيرة مـن دفتر مذكراتي . وأيقنت أنني مضطر لأن أكتب ذيلا يتألف مـن عشرة أسطر أو ربما عشر صفحات ألحقه برسـالتي التي حملت عنوان « ملحمة بدرالدين بن قاضي سيماونه » .

في آخر رسالتي هناك فصل بعنوان « قصة أحمد » . فما عثرت عليه ومـا قرأته في دفتر مذكراتي ، وتلك « النقطة » التي أحسست بضرورة كتابتها كذيل لرسالتي هي المناقشة التي دارت بيننا بعـد أن روى أحمد قصته لي .

وفيما يلي أنقل مـا دار في هذه المناقشة كما هو

« انتهى أحمد من رواية تفاصيل قصته للمطر الذي كـان يوشوش في الخـارج ، وللأرضية الاسمنتية المتعرقـة للمهجع ، وللمساجين البالغ عددهم ثمانية وعشرين . بادرته قـائلا :

ـ يخيل الي يا أحمد أنك تشعر بشيء من الكرامة والعزة القوميتين وأنت تروي قصة حركة بدرالدين .

من خلال هذه الجملة التي قلتها بصوت فيه شيء من الغرابة المتعمدة أمسك أحمد بعبارة « الكرامة والعزة القوميتين » مثل سوط وراح يلوح بهـا في وجهي ويقول :

ـــ نعم ، انني أشعر بشيء من الكرامة والعزة القوميتين • فالبروليتاريا الواعية لأية أمة اتتمت استطاعت أن تنسج ملحمة مثل حركة بدرالدين لا بد لها من أن تحس بالكرامة القومية • حذار من أن تفزع من كلمتي الكرامة القومية ! عليك ألا تخـاف من اجتماع هاتين الكلمتين وورودهما جنباً الى جنب ! تذكر لينين • فمن منا يستطيع أن يدعي لنفسه تحلياً بالاممية أكثر من لينين ؟ مــاذا كتب لينين أكبر قــائد أممي للــديمقراطية البروليتاريــة الاممية ، للجماهير الكادحة في العالم ، للبروليتاريــا الاممية ، في القــرن العشرين ، في العــدد /٣٥/ من جريــدة « الاشتراكي الديمقراطي » عــام ١٩١٤ ؟

لو قال أحمد « ماذا كتب لينين حول مسألة كذا ؟ » لأمكن وجود عــدد ممن يردون على سؤاله • الا أن لجوءه الى طرح المســألة من خــلال العــدد /٣٥/ من جريــدة « الاشتراكي الديمقراطي » أذهلنا جميعا • ومــا من أحد بيننا استطــاع أن يتذكر الأشياء المكتوبة في العــدد /٣٥/ • ابتسم أحمــد ازاء ذهولنا وحيرتنا ـــ وهو الذي اعتاد على الدوام أن يعبِّر عن كل مشاعره من أكثرها ايلامــاً الى أشدها بعثاً على السرور عبر تلك الابتسامة الشهيرة التي كانت معروفة عنه ـــ وتلا على مسامعنا المقاطع التالية من ذاكرته المحملة بجميع الأفكــار الرئيسية لأعمال لينين الكاملة مع أرقــام الصفحات والاسطر :

« ••• نحن البروليتاريين الروس الواعين ، هل نحن براء من شعور الكرامة القومية ؟ لا ، بالطبع ! نحن نحب لغتنا ، ونحب وطننا ، ونحن نبذل قصارى جهودنــا لكي ننهض بجمــاهير شغيلة هــذا الوطــن (وهؤلاء الشغيلة يؤلفــون تسعة أعشار

السكان) الى مستوى حياة الوعي ، الى مستوى حياة ديمقراطية اشتراكية . وما أشد الألم الذي يعتصرنا عندما نرى ونحس ما يكابده وطننا الجميل على أيدي الجلادين خدم القيصر والنبلاء والرأسماليين من ألوان العسف والظلم والقهر ! وما أشد اعتزازنا حينما نرى هذا القهر قد أثار المقاومة من جانب ربوعنا ! من جانب الروس ، حينما نرى هذه الربوع وقد أبرزت راديشيف والديسمبريين والثوريين من غير النبلاء في العقد الثامن ، وحين نرى الطبقة العاملة الروسية قد أسست ، عام ١٩٠٥ حزبا جماهيريا ثوريا قويا ، وأن الفلاح الروسي قد بدأ في الوقت نفسه يصبح ديمقراطيا ، بدأ يزيح عن كاهله كابوس الكاهن والاقطاعي ... » .

« ... نحن مفعمون بالكرامة والعزة القوميتين ، لأن الامة الروسية قد أنجبت هي الاخرى طبقتها الثورية ، قد برهنت هي الاخرى أنها تستطيع أن تقدم للبشرية ، عدا المذابح الكبرى وصفوف المشانق والسجون والمجاعات والخنوع أمام القسس والقياصرة والاقطاعيين والرأسماليين ، أن تقدم عدا كل هذا آيات رائعة في النضال من أجل الحرية والاشتراكية .

« نحن مشبعون بروح الكرامة والعزة القوميتين . ولهذا بالذات نمقت أشد المقت خنوعنا واستخذاءنا الماضيين (عندما استطاع النبلاء الاقطاعيون جرّ فلاحينا الى الحرب من أجل خنق الحرية ودوسها في كل من المجر وبولونيا وايران والصين) ، كما نمقت أشد المقت خنوعنا واستخذاءنا الحاليين عندما نرى الاقطاعيين أنفسهم ، يساعدهم الرأسماليون ، وهم يسوقوننا الى الحرب من أجل خنق بولونيا وأوكرانيا ، ومن أجل قمع الحركة

الديمقراطية في كل من ايران والصين تدعيماً لقوة الزمرة التي تهين كرامتنا القـومية الروسية ، زمرة رومـانوف وبوبرنسكي وبوريشكيفيتش وأضرابهم • مـا من أحد يلوم العبد لأنه ولد عبداً ، غير أن العبد الذي لا ينزع الى حريته ويسعى لتبريـر عبوديته تلـك بـل ويعمل حتى على تزيينها (كـأن يسمى خنق بولونيا وأوكرانيا وغيرهما •• مثلا « دفاعاً عن وطن » الروس) ، مثل هذا العبد حقير ووضيع لا يستحق الا أعمق مشاعر السخط والقرف والاشمئزاز » •

بعـد قيامه بتلاوة كل هذه الأسطر عن لينين صمت أحمـد فجأة وأخـذ نفساً عميقا ثـم تـابع كلامه راسمـاً على وجهه ابتسامته الشهيرة وقـال :

ـ نعم ، لأن ربوع بلادنـا نحن أيضا استطاعت أن تنجب بدرالدين وبوركلوجه مصطفى وطورلاق كمال ، وفلاحي آيدن والغابة المجنونة الذين قـاتلوا رافعين راية أولئك ، فانني ، أنـا البروليتاري الذكي الواعي ، أشعر بالكرامة والعزة القوميتين • انني أشعر بهذه الكرامة القومية لأن الجماهير الكادحة في هذه الامة (أي تسعة أعشارها) استطاعت حتى خـلال تاريخ الاقطاع أن توجـد حركة كانت ترى البحار العيسوي من صاقيز والحرفي الموسوي من أماكن أخرى والفلاح المسلم أخوة متساوين • ولا تنسوا أبداً أنه « مـا من أمة تستعبد غيرها تكون أمة حرة ! »

كنت قـد أردت أن أكتب مقـدمة لرسـالتي التي حملت عنوان : « ملحمة بدرالدين بن قاضي سيماونه » • أردت دراسة وتدقيق الشروط والأسباب الاجتماعية ـ الاقتصادية التي أدت الى ميلاد حركة بدرالدين وموتها ، أردت أن أجري مقارنة بين

مادية بدرالدين ومادية سبينوزا • غير أنني لم أوفق الى ما أردت • وبدلا من ذلك فقد كتبت « خاتمة » قصيرة لذيل هذه الرسالة فكانت الأسطر التالية :

كان أحمد قد قال لي : اننا نريد منك « ملحمة بدرالدين »•

أما أنا فلم أتمكن من انجاز أكثر من مسودة لما طلب مني • وسأسعى لأكتب ما هو أفضل من تلك المسودة • غير أن ما هو مطلوب مني أنا مطلوب منكم أنتم أيضا أنتم يا من تقولون بأنكم أصدقاء أحمد ورفاقه وأخوته مثلي أنا !

ان أحمد يريد منا جميعاً أكواماً من المجلدات التي تصف تفاصيل حركة بدرالدين بكل قوتها وعظمتها ، غابات جليلة تعيد أبطال قره بورنو ودلي أورمان بلحومهم وعظامهم ورؤوسهم وقلوبهم الى الحياة كما هي ، أشعاراً تقول :

لا تتأوهوا ، أيها الرفاق ، ولا تبكوا !
هيا ارفعوا الجسور بين الأمس واليوم
بين اليوم والغد !

ان أحمد يريدنا أن نصنع لوحات زيتية تصور البطولة والأبطال تخليداً لذكرى حركة بدرالدين •

المحتويات

هــذه الملحمة

لعبت أفكار بدرالدين دورا كبيرا في الانتفاضات الفلاحية المناهضة للاقطاع والتي انتشرت انتشارا واسعا في مناطق آيدن ومانيسا في القرن الخامس عشر • حققت هذه الحركات الفلاحية بقيادة اثنين من تلاميذ الشيخ بدرالدين هما : بوركلوجه مصطفى وتورلاق كمال نجاحا كبيرا غير أن قوات السلطان محمد الجلبي قامت باغراقها في بحر من الدماء بكثير من القسوة والعنف • بعد ذلك تمكن بدرالدين من عبور البحر واستأنف دعوته الثورية بعد أن عسكر في دلي أورمان (الغابة المجنونة) ، غير أن جواسيس السلطان تمكنوا من التسلل الى حركته ونجحوا في اختطاف الشيخ الذي تم شنقه في بلدة سيرز •

ان أحد الاسباب التي جعلت ناظم حكمت يكتب ملحمة الشيخ بدرالدين ، بل أهم هذه الاسباب ، هو أن هذا الشيخ استطاع قبل خمسة قرون من الآن أن ينشر بين صفوف الشعب أفكار المساواة والحرية ودفع حياته ثمناً لنضاله في هذا السبيل •

الثمن : ٣٫٥ ل٠ل٠